المقالات

دور المؤسسات الاجتماعية في تثقيف الطفل العربي

د. محمد محمود العطار
دكتوراه في فلسفة التربية
جامعة كفرالشيخ - مصر

مقدمة:

الطفل هو عماد المستقبل، وهو الثروة البشرية لأي أمه، ويتوقف تقدمها على اهتمامها بالطفل وإعداده بدنياً ومعرفياً وتربوياً، فالطفل سيصبح شاباً في الغد وقائداً للمستقبل؛ لذلك فالاهتمام به في هذه المرحلة المبكرة يكتسب أهمية كبيرة من خلال غرس قيم التسامح والولاء والتفاني في العمل لديه وتحفيزه على اكتساب المعرفة، وجعله مواطناً صالحاً لخدمة وطنه.

ولقد اهتم الإنسان بطفله، والقيام على تربيته، منذ أقدم العصور على أنه هو الوسيلة الناقلة لتراث الأمة وثقافتها، وهو الحصن المنيع للدفاع عنها والصانع لمستقبلها، والعامل على ازدهار اقتصادها، ومن هنا جاء الاهتمام بالطفل والأخذ بيده إلى الأفضل، والعناية بنموه الفكري بما يتناسب مع الظروف البيئية والاجتماعية التي يعيشها مجتمعه (آدم، 1401 هـ).

ولا شك أن الطفل العربي، حياته وثقافته يشغلان كل مهتم بمستقبل هذه الأمة، ويزداد هذا الاهتمام كثيراً مع كل إحباط وهزيمة جديدة يُصاب بها الوطن العربي سياسياً أو اقتصادياً أو عسكرياً، فمع الإحباط والهزيمة عادة يتم الهروب لإنقاذ المستقبل، والإبقاء على الأمل في الجديد القادم كمحاولة لحماية الأمة والذات من الاستسلام والتلاشي والاندثار، وما أكثر الهزائم والإحباطات في حياتنا! لذلك من المنطقي أن يظهر، من حين لآخر، الاهتمام الكبير بعالم الطفل وثقافته (الجابري، 2002).

وتعتبر الثقافة من الموضوعات المهمة في حياة الإنسان؛ لأنها تتصل به، وتعبر عنه، وتسجل تطوره، وتبرز تقدمه، على مر العصور والأزمنة. والثقافة هي العلوم والمعارف التي يتوصل إليها الإنسان بعقله وفكره وتأمله وملاحظته، وهي عنوان المجتمعات البشرية التي تحدد ملامحها، وتوضح اتجاهها، وتبين عقائدها، التي تؤمن بها ومبادئها التي تحرص عليها، وتراثها الذي تحافظ عليه، وتحب له الشيوع والانتشار.

ويخرج الطفل إلى الحياة؛ ويتلقى الثقافة بحسب ما يمليه عليه المجتمع، فكلما وُضِع الصغير في مواقف تربوية ناضجة كان أقدر على فهم نفسه وفهم ما حوله، وكان أسرع إلى مسار النجاح، وإذا كان غير ذلك فإن المعاناة أو الفشل مصير خطواته.

□□□□□□ □□□□□□□□□(□) 90 4/26/09 12:44:04 PM

تعريف الثقافة:

الثقافة هي حياة الإنسان، وعماد شخصيته، ولا قيمة له بدونها، يكتسبها منذ الطفولة، ثم تنمو، وتتطور معه شيئاً فشيئاً، وبها يستطيع أن يتقدم ويحقق التقدم والرقى.

ويُعَرِّف (تيلور Taylor) الثقافة بأنها: «ذلك الكل المركب الذي يتضمن المعرفة والاعتقاد والفن والقانون والأخلاق والعُرْف، وأية قدرات أو عادات يكتسبها الفرد، بوصفه عضواً في المجتمع»، ويُعَرِّف «معجم أكسفورد» الثقافة بأنها: الاتجاهات والقيم السائدة في مجتمع معين، كما تنعكس في الرموز اللغوية والأساطير وأساليب الحياة ومؤسسات المجتمع التعليمية والدينية والسياسية (عيد، 2001).

والثقافة في المجتمع الواحد، في حقيقتها، ثقافات، إلى جانب الثقافة العامة، منها ثقافة الأطفال، ما دام لهم من المعنويات وأنماط السلوك ما هو سائد، حيث إن للأطفال عاداتهم ولغتهم وأفكارهم وميولهم ومعاييرهم وألعابهم، ولهم أيضاً أساليب حركية أو رمزية أو اتصالية أو عقلية أو عاطفية.

والطفل يولد مرتين، إحداهما: ولادة بيولوجية، والثانية ولادة ثقافية، حيث تبدأ هذه الأخيرة بالتكوين مع بدء امتصاص الطفل، من المجتمع، للغة والأفكار والعادات وأنماط السلوك الأخرى، مما يشكل ثقافة الأطفال الآخرين في المجموعة أو الجماعة أو المجتمع (الهيتي، 2001).

إن الثقافة الطفلية ثقافة بنائية تتجه إلى بناء الشخصية وتكوين الطفل إنسانياً. ومن هذا المنطلق الوظيفي فإن ثقافة الطفل تكون وثيقة الصلة بهويته، إنها صيرورة إنسانية تُوَلِّد في الطفل عناصر نمائه وتكامله الإنساني، وتؤدى دوراً مركزياً في بناء شخصيته وتكوين هويته المستقبلية. فثقافة الطفل ليست مجرد منظومة مكتسبات معرفية أو علمية أو قيمية مكدسة في عقله أو ذاكرته، بل هي فعل تكويني يشتمل على مختلف الجوانب الوجودية في حياة الطفل وفى صميم وجوده الإنساني (وطفة، 2004).

إن ثقافة الأطفال نقصد بها تدريبهم على اكتساب أساليب مجتمعهم الحياتية، وتنشئتهم على مراعاة قيمه واتجاهاته ومعاييره الاجتماعية وأصول معتقداته ولغته.

وتهدف ثقافة الطفل إلى بناء شخصيته على نحو متكامل من النواحي العقلية والاجتماعية والانفعالية والوجدانية،وإلى تعميق الروح الإنسانية والقومية والوطنية، وغرس المفاهيم الأخلاقية، وتشجيع روح الإبداع والابتكار.

ثقافة الطفل بين الحاضر والماضي:

إن كلمة ثقافة وإن بدت في شكل ثبوتي مُعبر عن جلة من المعطيات الفكرية والمادية فهي في باطنها دائمة التغير، والتبدل، في علاقة جدلية تربط الماضي بالحاضر، وتقود إلى المستقبل. فما بين حاضر الطفل العربي من معطيات ثقافية قد بدأت وكأنها في قطيعة مع ماضي الثقافة العربية الأصلية، وعند تشخيص حالة ثقافة الطفل حاضرها وماضيها نجد حقيقة بداية انهيار الصورة الأصلية لثقافة عربية سادت،وأصبحت الآن في معترك تواجه فيه

□□□□□□ □□□□□□□□□□(□) 91 4/26/09 12:44:04 PM

أشد الضربات عبر وسائط مرئية ومسموعة لا قبل لها بها، فبدأت تترك العديد من مضامينها، وتسمح بتسرب مضامين الحداثة والمعاصرة في علاقة يبدو وكأن الماضي الثقافي قد مضى ولم يمض بأجمعه، وأن المعاش الثقافي قد حضر ولم يحضر بأكمله.

وتتجلى خصوصية ثقافة الطفل العربي في تداعياتها المرتبطة بالتقاطع بين ما هو أصيل وبين ما هو معاصر في السعي لتوجه نمو هذا الإنسان، وضبطه ليكون نتائج هذا الضبط شخص له سمات عربية مناظرة أو مقاربة لكل ما هو عربي. مع وجود هوامش فارقية في فعاليات الثقافة يصير النمو المعرفي والنضج الاجتماعي حاجزاً دون ما هو فردي وفوضوي ومطلق الحرية والتلقائية، لأنه يصير وبحكم المعطيات الثلاثية للثقافة «النفسي ـ الاجتماعي ـ الحضاري» موجهاً نحو المماثلة والتقارب مع الآخرين.

فالطفل من حيث هو كائن اجتماعي يمر بعملية توضع في دروب الثقافة «السالكة وغير السالكة»، والعلاقات الاجتماعية «الحميمة وغير الحميمة» في تجذرها الثقافي، وتأثرها بكل ما هو عصري على الرغم من الخصوصيات المكانية والانتمائية، ومن ثَمّ فإن تشكيل المخزون المعرفي الثقافي للطفل العربي يصير رهاناً تسعى لكسبه وسائط تثقيف متعددة، بعضها منسجم وإيجابي، وبعضها متعارض وغرضي سلبي. وتزداد عتامة الموقف الثقافي للطفل العربي منذ بداية طغيانه لثقافة عالمية ذات جذور غربية تتجاوز جميع الحواجز والمحددات الثقافية غير آبهة بالخصوصيات الثقافية فارضة قيماً سطحية أو استهلاكية سوقية (الدويني، 2001).

لقد سبقتنا بلدان كثيرة، هيأت لأطفالها الكثير مما يجعل الفرد منا يقف مبهوراً ومتحسراً؛ مبهوراً بما وصلوا إليه، وبما حققوه لأبنائهم، ومتحسراً على حظ أبنائنا من موارد الثقافة اللازمة ومصادر المتعة الواجبة، مما لم يتحقق منه شيء لدينا الآن (حنورة، 1985).

دور المؤسسات الاجتماعية في تثقيف الطفل العربي:

يقع عبء اكتساب الطفل للثقافات المتعددة والمتنوعة على عدد من المؤسسات الاجتماعية داخل المجتمع، مثل الأسرة، والمدرسة، والأجهزة المعنية بالثقافة، ووسائل الإعلام المختلفة.

أولاً. دور الأسرة في تثقيف الطفل:

للأسرة دور مهم في تكوين ثقافة الطفل وتنشئته، خصوصاً في السنوات الأولى من عمره، وهي الوعاء الثقافي الذي يكسب فيه الطفل اللغة والمفاهيم والاتجاهات، والقيم والعادات والأدوار الاجتماعية وغيرها.

والأسرة هي الخلية الثقافية الأساسية لعملية التنشئة الاجتماعية، فمن خلالها تتبلور شخصية الطفل بجوانبها العقلية والاجتماعية والجسمية والانفعالية.

ويبرز دور الأسرة هنا من خلال تشجيع الطفل على تنمية الجوانب الثقافية التي يميل إليها، سواء أكانت القراءة، الموسيقى، الرسم أو الرحلات، وتشجيعه على ممارستها، وعدم حرمانه من التمتع بمثل هذه الأنشطة الثقافية. وإن كان الأمر يعتمد بالدرجة الأولى على شخصية كل من الأب والأم، ومدى اهتمامهما بالثقافة وإيمانهما بأهميتها لمستقبل الطفل.

□□□□□□ □□□□□□□□□(□) 92 4/26/09 12:44:04 PM

إضافة إلى أن التحديات التكنولوجية، والتطور الهائل الذي نواجهه اليوم يجعل لزاماً على الآباء والأمهات أن يهتموا بتعليم الأطفال لغات أخرى غير العربية، حتى تزداد خبراتهم بالثقافات المختلفة، ليستطيعوا أن يقارنوا بين ثقافاتهم وثقافة الغرب، وأن يكوِّنوا رأياً عنها.

فاللغة الأجنبية أصبحت الجسر الموصل إلى ثقافات الدول الأخرى، وفتح الأبواب المغلقة على الدول الأكثر تقدماً، وليس معنى هذا أن تطغى اللغة الأجنبية على اللغة العربية، أو تؤدي إلى فقدان الهوية العربية، خاصة وأن الطفل يتعلم اللغة الأجنبية وهو فى سن صغيرة ـ بل على العكس ـ فاللغة وسيلة لاكتساب العلم والمعرفة، والمشاركة في الحوار والتفاعل مع التطور الإعلامي والثقافي الذي سيطر على العالم. فالغرب تعلم اللغة العربية في العصور الوسطى، واستقى منها، وبنى حضارته، ولم يفقد هويته (محمد، 1997).

ثانياً. دور المدرسة في تثقيف الطفل:

لقد فرض عصر المعلومات تحديات جديدة في مجال التعليم، وأصبحت مهمة التعليم في القرن الحادي والعشرين: هي كيف يتعلم الطالب ذاتياً، وكيف يداوم على عملية التعلم طوال فترات حياته العملية، وأصبح التعليم في مجال تكنولوجيا المعلومات يهدف إلى تنمية قدرات الأفراد على الإبداع والابتكار، وحل المشكلات من خلال تدريبهم على التفكير العلمي، بالإضافة إلى القدرة على استخدام الحاسبات الآلية، وتطوير أساليب التعليم لرفع إنتاجية مُدَرِّسيه وطلابه، وزيادة فاعلية إداراته، وتعظيم عائده لضمان تنشئة جيل جديد على درجة من الوعي، والقدرة على تغيير واقع المجتمع، والتصدي لسلبياته من أجل حياة أفضل، ومن هنا لابد أن تهتم المدرسة بتعليم الأطفال الحاسب الآلي حتى يستطيعوا ملاحقة تطورات المجتمع. كما أن دور المدرسة والتعليم فيها هو الأساس الذي تنبني من فوقه ثقافة الطفل، ونعلم ما هي بحاجة إليه من تطوير، فينتقل بها من التلقين المعرفي والوعظي إلى دور البحث والإبداع عن طريق معلم عصري متطور يعرف مهمته ودوره، ومن خلال منهج متطور يُعْنَى بعقلية الطفل وذكائه وقدراته ومواهبه.

كما يبرز دور المدرسة في تنمية ثقافة الطفل من خلال توفير مكتبة تضم شتى أنواع الموسوعات والكتب والقصص التي تناسب الأطفال، إضافة إلى الحرص على القيام بالرحلات، وزيارة المتاحف والأماكن السياحية المختلفة؛ ليكتسب الأطفال ثقافة عن حضارة وطنهم.

ثالثاً. دور وسائل الإعلام في تثقيف الطفل:

مما لاشك فيه أن لوسائل الإعلام دوراً مؤثراً وكبيراً في الطفل، واكتسابه للثقافة، وعلى الرغم من الآثار السلبية لوسائل الإعلام، إلا أن هذا لا ينفي ما لها من آثار إيجابية على الطفل. وإذا كانت وسائل الإعلام تستطيع أن تزوِّد الفرد العادي بالمعلومات فإن تأثر الطفل يكون مضاعفاً؛ لأن الطفل أكثر تعلقاً بالتلفاز وما يعرض على شاشته؛ لأنه يجلس أمامه فترة طويلة.

ويبدو أن أثر وسائل الإعلام في الطفل يفوق أثر المدرسة. ويُعَدُّ التلفاز أكثر الوسائل الإعلامية تأثيراً في الطفل؛ لأنه يجمع بين مزايا عديدة تجذبه؛ حيث إنه يجمع بين حاستي

□□□□□□ □□□□□□□□□(□) 93 4/26/09 12:44:04 PM

البصر والسمع، ويجمع بين الصوت والصورة والحركة واللون. وتستطيع وسائل الإعلام أن تنمي قدرة الطفل على خلق آراء حول موضوعات معينة بشكل جزئي، وبحسب سنه، ولكنها تتغير فيما بعد (محمد، 1997).

خاتمة:

في الوقت الذي يتحتم علينا مواكبة عصر العولمة وملاحقة الركب المتقدم يتعين علينا أن نحافظ على ذاتيتنا وشخصيتنا المميزة لنا عن غيرنا، حيث أصبحت الحاجة ملحة إلى إبراز معالم ثقافتنا العربية والإسلامية دفاعاً عن أصالتها، وتثبيتاً لها في عقول الناشئة وتجذيرها في نفوسهم، وذلك لمواجهة الثقافة الغربية، تلك الثقافة التي أصبح تأثيرها يمتد في سلوكنا بسرعة التيار الجارف في عصر العولمة.

ونحن العرب بحاجة إلى إعادة النظر في مناهج التعليم لنتصالح مع الحداثة والتكنولوجيا في عصر العولمة، عصر الإنترنت والمعلومات والقنوات الفضائية، وعلينا أن نجعل المناهج ليست هدفاً في ذاتها، بل نجعلها تحث الطالب على الوصول إلى المعرفة، والبحث عنها في عصر تراكمت فيه المعرفة؛ وذلك من أجل تحصين أطفالها وشبابها ومواطنيها ضد هيمنة وسائل الإعلام السائدة التي تمتلكها الشركات العالمية، وتستخدمها لأغراضها في الربح والسيطرة.

وأخيراً وليس آخراً نوصي بما يلي:

- العمل على إنشاء مكتبات عامه متخصصة للأطفال، أو إفراد أجنحه خاصة بالأطفال في المكتبات العامة، وتزويدها بمختلف وسائل التثقيف الخاصة بهم.
- ضرورة العمل على إصدار مجلات جديدة تغطي احتياجات الطفل في مختلف مراحله.
- حماية الطفل من أخطار الثقافة المستوردة عن طريق تنقيتها قبل تقديمها إلى الطفل بما يتناسب وقيم مجتمعنا ومتطلباته، والعمل على إيجاد البديل في مجتمعنا لهذه البرامج الثقافية عن طريق مختلف الأجهزة والمؤسسات الأخرى.
- الاهتمام ببرامج الأطفال في الإذاعة والتليفزيون لإشباع احتياجات الأطفال واهتماماتهم، مع الحرص على جودة ما يقدم من برامج إعلامية على أساس الانتقاء الجيد لهذه البرامج.
- العمل على توثيق العلاقة بين الأسرة ومؤسسات تربية الأطفال من أجل الانتقاء الجيد لثقافة الطفل، باعتبارهم مؤسسات للتنشئة الاجتماعية تعمل على إشباع حاجات الطفل المختلفة.

□□□□□□ □□□□□□□□□(□) 94 4/26/09 12:44:04 PM

المراجع

آدم، محمد سلامة (1401هـ). المفهوم الإسلامي للطفولة واتجاهات التربية الحديثة، مجلة الفيصل، العدد(52)، المملكة العربية السعودية.

الجابري، حمدي (2002). مسرح الطفل في الوطن العربي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

حنورة، مصري عبدالحميد (1985). سيكولوجية التذوق الفني، القاهرة، دار المعارف.

الدويبي، عبد السلام بشير (2001). ثقافة الطفل العربي.. الأبعاد المأزمية والجهود العربية، مجلة الطفولة والتنمية، المجلد (1)، العدد(4)، القاهرة، المجلس العربي للطفولة والتنمية.

عيد، محمد إبراهيم (2001). الهوية الثقافية العربية في عالم متغير، مجلة الطفولة والتنمية، المجلد (1)، العدد(3)، القاهرة، المجلس العربي للطفولة والتنمية.

محمد، ميرهان محسن (1997). ثقافة الطفل في عصر المعلومات، مجلة منار الإسلام، السنة (22)، العدد (11)، الإمارات العربية المتحدة، وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف.

الهيتي، هادى نعمان (2001). الهوية الثقافية للأطفال العرب إزاء ثقافة العولمة، مجلة الطفولة والتنمية، المجلد(1)، العدد(2)، القاهرة، المجلس العربي للطفولة والتنمية.

وطفة، علي أسعد (2004). الطفولة العربية والصراع على المصير في استراتيجية البناء الثقافي للطفل العربي، مجلة شؤون عربية، العدد (119)، القاهرة، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية.

□□□□□□ □□□□□□□□□□(□) 95 4/26/09 12:44:05 PM